الطبيعة فى شعر ابن خفاجة

— ٤ —

ثم لاحظ فى هذه المقطوعات أنه يتعرض للمكان الذى شرب عنده الخمر بالذكر ، فيصفه ويصف الغمامة الدكناء والشمس المريضة ؛ فاذا لاحظت ذلك فانك لابد واجد الاختلاف البين بين خمريات أبى نواس المطولة وبين خمريات ابن خفاجة القصيرة . فلعلك ترى أن ابن خفاجة لا يجعل الخمر ولا غيرها موضوعا يقول فيه الشعر ، ولكنه يجعل مناظر الطبيعة ومتفرجاتها موضوعا يتكلم عنه ويصفه ، ثم يتعرض فى أثناء وصفه إياه الى الخمر الحمراء والى كؤوسها البيضاء بالوصف ، ويتعرض الى الساقى والشاربين بالذكر ، فيكون من ذلك صورة قوم عاكفين على الشراب فى آخريات النهار أو فى رائعة الصباح على ضفاف الجداول فى ظل الأدواح وبين العرار والاقاح .

هذا هو الفرق ، تدركه حين تعلم ان ابا نواس كان مغرما بالخمر وان ابن خفاجة كان مغرماً بالطبيعة ؛ وان ابا نواس كان يقصد الى الخمر قصدا فينشىء القصيدة فيها ، وان ابن خفاجة كان يقصد الى الطبيعة قصداً فينشىء المقطوعة فيها ، وحين تعلم ان ابا نواس فى خمرياته يقصد الى خمارة البلد فيدخلها ويشرب ويصف مجلسه فيها والخمر التى يتناولها والكؤوس التى يرشف منها ، وان ابن خفاجة كان يقصد الى المتفرجات والمناظر فيصفها ويصف مجلسه فيها ؛ وحين تعلم ان ابا نواس كان يشرب ويكثر من الشرب فى الحانات او فى المنازل فى كل وقت حتى يسكر وتميل به الكأس ، وان ابن خفاجة لايشرب الا حين يدعوه جمال المنظر ورقة النسيم واعتدال الاقليم

فابو نواس حين يصف الخمر كابن خفاجة حين يصف الطبيعة ، وابن خفاجة كأبى نواس فى الاقلاع عن الخمر وفى التوبة عنها يحسنان وصفها ويجيدانه : فيقول ابو نواس :

وقلت لساقيها اجزها فلم اكن ... ليأبى امير المؤمنين واشربا
لجوزها عنى سلافا ترى لها ... الى الافق الاعلى شعاعا مطنبا
اذا عب فيها شارب القوم خلته ... يقبل فى داج من الليل كوكبا

ويقول ابن خفاجه :

يا حبذا نادى المدام ومجتلى ... سر السرور به ومسرى الانفس
ولئن كففت عن المدام فان لى ... نفساً تهش بصدر ذاك المجلس
لولا الحياء من المشيب لقبلت ... ثغر الحباب به وعين النرجس

فهو يتأوه ويقول : ياحبذا نادى المدام حيث السرور وحيث الطرب ؛ ولئن كنت قد كففت عن الشراب واقلعت عنه فان لى نفساً تهش اليه مع الصدور . وتحن اليه على البعد ؛ ولولا حيائى من المشيب لقبلت ثغر الحباب . وحضرت مجالس الاحباب . ويقول كذلك :

صحا عن اللهو صاح عافه خلقا ... فقام يخلع سربالا له خلقا
وعطل الكأس من شقراء سابحة ... ألا كفاها بريعان الصبا طلقا
ورب ليلة وصل قد لهوت بها ... مغازلا فلقا أو شاربا شفقا

فهو يقول : لقد صحوت عن اللهو وعفته . وقمت أخلع سربالا له خلق الرث ، وقد عطلت الكأس من الخمر الشقراء بعد أن كانت فى ريعان الصبا طليقة غير معطلة ، ومقربة غير مبعدة ، وموصولة غير مقطوعة : الى هنا يمسك نفسه عن تذكر الماضى ولكنه بعد ذلك لا يرى بدأ من ذكره فيقول ، ورب ليلة قد اجتمع لى فيها خمر حمراء ووجه جميل ؛ فكنت أقضيها بين مغازلة صباح وضاء ، وبين رشف شفق أحمر

وهو فى القطعة الاولى جعل للحباب ثغراً وأنه لولا المشيب لقبله ، وفى القطعة الثانية شبه الخمر بالشفق الاحمر : والثغر والشفق منظران من مناظر الطبيعة .

هذا ماوعدناك به فى هذا الفصل ؛ فهل ارتحت اليه وهل أعجبت بشعر ابن خفاجة حين يذكر الخمر ويذكر معها جمال الوقت واعتدال الزمان فيسكرك بوصفه الخمر ويطربك بوصفه الطبيعة : (له وشفها دونى ولى دونه السكر)

وكأنى بك تتمايل من شدة الطرب وتترنح من شعر ابن خفاجة كما ترنح العباس بن الاحنف حين سمع قول ابن الدمينة يتشوق الى نجد :

الا ياصبا نجد متى هجت من نجد ... لقد زادنى مسراك وجداً على وجد

اذا كان ذلك فاسمع اذن هذه المقطوعة فى الخمر :

ندى النسيم فما ارق واعطرا ... وهفا القضيب فما أغض وأنضرا
فرفقتها بكراً اذا قبلتها ... القت على وجهى قناعا احمرا
ورفلت بين قميص غيم هلهل ... ورداء شمس قد تمزق اصفرا
والريح تنخل من رذاذ لؤلؤاً ... رطبا وتفتق من غمام عنبرا

الطبيعة في الغزل : — قرأت قولنا في خمريات ابن خفاجة ورأيت اقواله في الخمر ، ولابد لنا حتى تزول عنك تلك النشوة التي اصابتك من جمال وصفه ومن جودة تشبيهه من ان نورد على مسامعك هذه الابيات :

وابتع بكيس كأس مشمولة ... واسحب ذيول اللهو واخلع وهب
واستضحك المجلس عن قهوة ... قد نبهت للصبح هذا لهب
نارية اللذعة نورية ... في صفرة فاقعة او حسب
وهز من عطفيك عن نشوة ... غضا اذا ماغنس الصبح هب
بابيض كالماء مستودع ... ماشئته من احمر كاللهب
لوذاب هذا لجرى فضة ... او جمدت تلك لكانت ذهب

فاذا صحوت من نشوتك فاصغ اذا شئت الى قولنا في غزله والى وصفه الطبيعة في ذلك الغزل .

وانك بعد ان تورد على مسامعك غزله الرقيق ووصفه الاعضاء وتناسقها ، والليالي وجمالها ، والطيف وزيارته ، ستجد في كل هذا وصفا للطبيعة لم يبلغه الكثير من اساطين الشعر . قال يتغزل :

فتق الشباب بوجنتيها وردة ... في فرغ اسحلة تميد شبابا
وضحت سوالف جيدها سوسانة ... وتوردت اطرافها عنابا
بيضاء قاض الحسن ماء فوقها ... وطفا به الدر النفيس حبابا

فهو يقول : انها شابة فتق الشباب بوجنتيها وردة حمراء ، كأن قامتها الهيفاء شجرة الأسحل تميد نضارة وشبابا ، وكأن سوالف جيدها البلوري سوسانة ، وكأن اطراف اصابعها عناب . وهي الى ذلك بيضاء كأنما الحسن ماء قاض فوق جسمها فطف عليه حباب ابيض : يشير بذلك الى انها مطوقة بقلادة من الدر . ثم يختم تغزله بهذه الابيات :

بين النحور قلادة تحت الظلا ... م غمامة دون السحاب نقابا
نادمتها ليلا وقد طلعت به ... شمسا وقد رق الشراب سرابا
وترنمت حتى سمعت حمامة ... حتى اذا حسرت وجرت غرابا

ثم اقرأ قوله :

ومهفهف طاوي الحشا ... خنث المعاطف والنظر
ملأ العيون بسورة ... تليت محاسنها سور
فاذا رنا واذا مشى ... واذا شدا واذا سفر
فضح الغزالة والغما ... مة والحمامة والقمر

ولاحظ بعد ذلك ما يمكنك أن تلاحظه : فلعلك ترى ان غزل ابن خفاجة لايشابه غزل غيره من الشعراء : فهو غزل اشبه شيء بوصف مناظر الطبيعة : فهو حين يقف امام محبوبته فيتغزل بما يكون كأنه واقف امام منظر من مناظر الطبيعة ، وكأن غرامه بالطبيعة وبمناظرها يغلب على شعره حتى في اوقات الغزل ، فيشبه حمرة وجنتيها بالوردة الحمراء ، وقامتها بشجرة الاسحل ، ثم يرى من سوالفها السوداء فوق جيدها البلوري ، ومن اطراف اصابعها التي خضبتها الحناء ما يذكره بالسوس والعناب ، ويشبه حسنها بالماء الصافي ، وقلادتها اللؤلؤية بالحباب ، وفي القطعة الثانية يشبه محبوبه بحيوانات الطبيعة : يشبه ريمه بالغزالة ، ومشيه بالغمامة ، وشدوه بالحمامة ، ووجهه السافر بصفحة القمر المنير ،

ولعلك تلاحظ أيضا أن غيره من الشعراء يقف في غزله موقف الولهان فيمعن في وصف محبوبه . وفي وصف حاله ، ثم ينبري فيبدي شكواه ويتألم ويتوجع ويصف عاطفته المهتاجة ونفسه الملتاعة .

ألا ترى الى ابن الدمينة كيف يبث في مقطوعته لواعج نفسه وكيف يبوح بوجده الذي يسره محبوبه حين يهب عليه ريح الصبا فيذكره بديار الحبيب :

الا يا صبا نجد متى هجت من نجد ... لقد زادني مسراك وجدا على وجد
أإن هتفت ورقاء في رونق الضحى ... على فنن غض النبات من الرند
بكيت كما يبكي الوليد صبابة ... وشجوا وابديت الذي لم تكن تبدي
وقد زعموا ان الحب اذا دنا ... يمل وان النأي يشفي من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف مابنا ... على ان قرب الدار خير من البعد
على ان قرب الدار ليس بنافع ... اذا كان من تهواه ليس بذي ود

وانظر الى البحتري كيف يبكي على فراق علوة الحلبية بما يثير العواطف والشجون :

قضت عقب الايام فينا بفرقة ... متى ما تغالب بالتجلد تغلب
فان ابك لا اشف الغليل وان ادع ... ادع لوعة في الصدر ذات تلهب
الا لا تذكرني الحمى ان ذكره ... جوى باطن للمستهام المعذب
اتت دون ذاك العهد ايام جرهم ... وطارت بذاك العيش عنقاء مغرب
وبالامس في عبرة قد سفعتها ... لبين واخرى مثلها للتجنب
تحاول مني شيمة غير شيمتي ... وتطلب مني مذهبا غير مذهبي
وما كبدي بالمستطيعة للاذى ... فاسلو ، ولا قلبي كثير التقلب
ولما تزايلنا من الجزع واتأى ... مشرق ركب مصعد عن مغرب
تبينت أن لا دار من بعد عالج ... تسر ، وأن لا خلة بعد زينب

ولكن ابن خفاجة لم يكن له من ذلك حظ قليل ولا كثير لأنه لم يكن له حبيب يبكي على فراقه ويطلب الشفاء مما قد سامه حبه ولم يكن له من لائم يلومه ويكلفه مالا طاقة له به

« البقية على صفحة ٣٦ »